سورة البقرة

المحاضرة الخامسة

الآيات من 27 : 30

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وبعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمدﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

نستكمل سورة البقرة:

" الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(27) "

ذكرنا في الآيات السابقة أن الله تعالى بيَّن الأمر للناس ولماذا يضل الفاسقين وقلنا أن فيها رد على القدرية والجبرية

القدرية هم الذين ينفون خلق أفعال العباد

الجبرية هم الذين يعتقدون أن الإنسان مجبر، وأن أعماله سواء الصالحة أو الطالحة مجبر عليها وكأنه ريشة في الهواء تتحرك.

وكلاهما اعتقاد فاسد.

[ولتفنيد شبهاتهم والرد عليها بالأدلة والتفاصيل راجعي محاضرات القدر على الموقع]

https://omtameem.com/category/lessons/3aqida/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%8A%D9%85%D8%A7%D9%86-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D8%B1/

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ)

(الَّذِينَ) نعت لكلمة (الفاسقين) قبلها.

- لم يُذكر في الآية ما الذي نقضوه، لكن ينبغي أولا أن نعلم ما النقض؟

النقض هو: إفساد أي شيء أبرمه الإنسان من عقد، أو عهد أو بناء... أو أي شيء، فنقض البناء أي: هدَّه ، نقض كلام فلان أي: هدمه

(عَهْدَ اللَّهِ)

العهد والمعاهدة هي: الشدة في العقد والربط

(مِيثَاقِهِ) الميثاق هو العقد المؤَكَد بيمين، والجمع مواثيق

فما العهد الذي نقضوه ؟

الله سبحانه وتعالى لم يبيِّن ما العهد الذي نُقض في هذه الآية، ولكن هناك آيات أخر تبيِّن لنا.

سنجد كما قال العلماء:

◄ نقضوا العهد الذي أخذه الله تعالى منهم وهم في ظهر أبيهم آدم، وقيل هذا أول عهد نُقِض وهو أن الله استخلفهم في الأرض، فقد أخذ الميثاق منهم وهم في ظهر أبيهم آدم، لمّا مسح على ظهر آدم واستخرج الذرية وأشهدهم على أنفسهم

قال تعالى: " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ(172) " [الأعراف]

◄ أوصاهم الله سبحانه وتعالى بطاعته طاعة مطلقة، وهذه الوصية جاءت على لسان رسله والكتب التي أنزلها على عباده، فجميع رسالة الرسل باختلاف الشرائع هي أن نوحِّد الله سبحانه ونطيع أمره ونتجنب معصيته، لكنهم نقضوا هذه الوصية بعصيان الله والبعد عن طاعته.

◄ وقيل أن الله نَصَب لهم الأدلة على وحدانيته وبيَّن لهم أنه هو الواحد الأحد والآيات الكونية كثيرة من خلق السموات والأرض وكل ما في الكون آية ظاهرة جليّة لأي عاقل أنه الواحد الأحد الذي خلق هذا الكون لكنهم نقضوا هذه العهود ولم يلتزموا بها.

◄وقيل أيضًا أن الميثاق هو إظهارهم لأمر النبي ﷺ أمام الناس وأنه مصدق لما أخبرهم به التوراة والإنجيل لكنهم لم يظهروه، قال تعالى:

" وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(187)" [آل عمران]

مَن الذين أوتوا الكتاب؟ اليهود والنصارى

(لتبيننه للناس): لتبينوا للناس ما عندكم في الكتاب أن محمدًا سيُبعَث، وأنه هو خاتم النبيين، وأن صفاته كذا..وكذا.. كما جاءت في التوراة والإنجيل وأنه هو الصادق المصدوق

(ولا تكتمونه): لا تكتموا الحق

(فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا): اشتروا الدنيا والمكانة والمنزلة حتى يظلوا هم الأفضل، فلا أظهروا الحق ولا ذكروا ما في الكتاب؛ وإنما نبذوا هذا العقد وراء ظهورهم أي نقضوا العقد.

◄ وقيل أيضًا أنه الميثاق (العهد) الذي أخذه الله تعالى على النبيين أو أتباعهم إذا عاشوا حتى يأتي النبي ﷺ أن يتبعوه لقوله تعالى:

"وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ(81)" [آل عمران].

بيان أن الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أنه إذا ظهر النبيﷺ يؤمنوا به ويعزّروه وينصروه، وأتباعهم يؤيدوه، والأنبياء بالطبع لا إشكال معهم ولكن الذي نقض العهد ولم يستجب للنبيﷺ هم أتباع الرسل من اليهود والنصارى.

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

لم يُذكر في الآية ما الشيء الذي يُوصَل؟ وما الذي قطعوه؟

هل الجواب سيكون في سورة محمد في قوله تعالى: " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(22) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (23) "

هل هذه هي الإجابة؟ لا

فالآية في البقرة نص عام (يقطعون)، وسورة محمد تعتبر نص خاص (لأن القطع خصص بقطع الأرحام) فلا يصح تخصيص آية البقرة لأن الذي أمر الله تعالى به أن يُوصَل هو أشياء كثيرة، فلا يصح التخصيص إلا بقرينة (دليل).

فالمعنى في سورة البقرة أوسع، وللعلماء في قوله تعالى (أَنْ يُوصَلَ) أقوال كثيرة منها:

1- الله عز وجل أمرنا بالإيمان، وأمرنا أن نصله بالعمل؛ لأن الإيمان قول وعمل (عقيدة أهل السنة) فنصل الأقوال بالأعمال

فلا نقول: آمنا وأعمالنا تدل خلاف هذا، فهذا فيه قطع للشيء الذي أمرك الله أن توصله

فأبوا إلا أن يتكلموا فقط كمنافقين، والآية تتكلم في سياق عن نفاق الكفار، فتكلم ولم يعمل فقطع ما أمر الله بوصله.

2- المقصود أنهم قطعوا صلة الأرحام فأمرهم الله عز وجل بوصلها.

وقفة

هل الأرحام هنا خاصة بأهل الأم، أم الأرحام من جهة الأب والأم؟

- **فريق من العلماء قال: أولى الناس بالأرحام هم أهل الأم، حتى في الميراث قوله تعالى: " وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ(75) " [الأنفال]**

- **وفريق قال: أولوا الأرحام كلهم من الاتجاهين.**

- **والقول الثالث: أن الأرحام المؤكَدَة هي تجاه الأم خلاف الميراث - فالميراث الذي يرث هو العصب- أما الأرحام فيكون الذي بينك وبينهم رحم مثل الأخوال، وأولادهم (إن لم يكن هناك فتنة من الاتصال.. وهكذا)**

أما من ناحية الأب فيجب أيضًا صلة الأرحام ولكن ليست بقوة صلة الأرحام من جهة الأم.

3- عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة شريعته ودينه في الأرض واجب على كل مسلم لكنهم لم يقيموا شرع الله ولا عبادة الله سبحانه وتعالى في الأرض بل قطعوا هذه الشريعة وأصبحوا يفعلون أشياء منها ويتركون أشياء " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ(85) "[البقرة] (سنأتي لها لاحقًا في التفسير) وكذَّبوا ولم يقيموا شرع الله على الوجه الأكمل.

(وهذا هو قول الجمهور)

4- أُمِروا أيضا أن يكون تصديقهم بالأنبياء متواصل، ولكنهم نقضوا هذا ولم يوصلوه بل قطعوه

فأُمروا أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ولا يفرقوا بين أحد من رسل الله تعالى،

فقطعوا ذلك وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض وهذا يعد كفرا كما سماهم الله في قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا(150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا(151) " [النساء]

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

الفساد في الأرض أنهم عبدوا غير الله، وهذه أعظم مفسدة لأن الإنسان لو ترك عبادة الله الواحد الأحد عَبَدَ كل شيء وهذه سنة كونيّة، وتراها حتى في المسلمين فضلًا عن الكفار، كل من ترك عبادة الله الواحد الأحد والانشغال عن عبادته سلّط الله عليه عبادات أخرى.

فالله أمرهم بعبادته سبحانه فلم يعبدوه ، فأفسدوا في الأرض وعبدوا مع الله آلهة أخرى إما أوثان وأصنام، وإما عبادات أخرى مثل التي ملأت قلوب المسلمين من عبادة النفس والأموال والأولاد.. وغيرها

وأعظم فساد على الإطلاق هو أن يُعبد إله من دون الله

(أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

(أُولَئِكَ) مبتدأ، (هُمُ) لها وجهان :

الوجه الأول مبتدأ ثان.

الوجه الثاني ضمير فصل جاء للتأكيد والحصر.

فضمير الفصل(هم) زائدة (وكلمة زائدة في علم النحو ليس معناه أنه ليس له فائدة بل معناه أنه ليس له محل من الإعراب ولكن له فائدة في زيادة المعنى فقد جاء للتأكيد والحصر).

وكأنه لا أحد أخسر من هؤلاء الذين تلبَّسوا بهذه الصفات الذميمة التي يبغضها الله عز وجل (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

فالذي تلبَّس بهذه الصفات خَسِر ولا بُدّ؛ ولذلك أكدها بـ(أولئك هم الخاسرون)، يعني خسارة كاملة من كل وجه فليس أعظم من ذلك خسارة.

و الخسران هو النقصان لأن الخاسر هو كل مَنْ نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز بما أعدَّ الله له؛ لأن الله تعالى بيَّن لنا طريق الفوز العظيم، وكذلك طريق الخسران

فالعاقل عنده وَجَل وخوف، يعلم أن هناك وقوف بين يدي الله وميزان وحساب، فيخاف من الخسران والحساب يوم القيامة.

أما الإنسان الساهي اللاهي الغافل الجاهل بدينه يعيش في غفلة ولديه اعتقاد فاسد أنه سيدخل الجنة بغير حساب، أو أن الله سيعفو عنه بأعمال بسيطة قد فعلها وغفل أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أبدًا أن يساوي في الآخرة بمن عمل وجهد وتعب وقام على أكمل وجه بمقام العبودية مع شخص عاش في الدنيا بلا هدف ولا يدري لماذا يعيش؟! مستهين بأوامر الله.

وبالنظر لأحوال السلف نجد نموذجًا مثل(سفيان الثوري) وهو عالم

لا يحتاج إلى تعريف يقول:

" إن الله فتح لي في القرآن وتفسيره وتدبره، فلما قَبِلْت صُرَّة من السلطان أُغلق عليَّ هذا الباب " حتى عاد وتاب

فالثوري وجد أن ما يفتح الله عليه في القرآن قد قلّ.. فما السبب؟

فلمّا راجَع نفسه وجد أن هذا بسبب أخذه لصُرّة من السلطان (مبلغ من المال).

سفيان الثوري لم يفعل شيئًا محرّمًا ولكنه أحس أن هذا بداية لأن يقع في شيء لايرضي الله عز وجلّ.

ومن رحمة الله اللطيف الرحيم أنه عندما يكون العبد تقيًّا ربانيًّا ويقع في ذنب يَمُنّ الله عليه بأن ينتبه له، فلما أُغْلِق عليه باب التدبر فانتبه للخطأ الذي وقع فيه، وبالفعل عاد سفيان مرة أخرى.

وبهذا نرى مدى شدة حساب السلف لأنفسهم، وشدة تربصهم لها كأن أحدهم متربص بعدو، فكان لديهم حالة من الخوف الشديدة من أنفسهم ودائمًا هم في مراقبة

فأين هذه القلوب الآن؟

أين هذه العقول الآن التي تحاسب نفسها في كل موقف وفي كل كلمة؟!

فائدة

وجوب الوفاء بالعهد

الله سبحانه يقول: " أَوْفُوا بِالْعُقُودِ(1) " [المائدة]

وقد أمر الله نبيه ﷺ ألّا ينقض العهد أبدًا؛ لأن نقض العقود فيه خيانة

يقول تعالى: "وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ(58) " [الأنفال]

أي: يا محمد مَن كان بينك وبينه معاهدة لا تحاربهم ولا يحاربونك ثم خفت من خيانتهم فلا تباغتهم حتى تخبرهم أنك لن تقبل خيانتهم.

فالخيانة صفة يبغضها الله فإياك أن تكون من الخائنين

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ:«مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَد مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا». أخْرجه البُخاري

أي معاهدة بيننا وبين (يهود، نصارى، كفار...) والحاكم أَبْرَم معهم معاهدة (أن لا نقتلهم ولا يقتلوننا) فلو حدث وقتلهم أحد غدرًا لن يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين

بالرغم أنه كافر لماذا؟

لأن الله لا يحب الخائنين وحرّم الخيانة فهذا ديننا، وهذه شريعتنا السمحاء.

" كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) "

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا) السؤال وإن كان في صيغة استخبار لكنه للتبكيت والتعنيف.

لماذا قال سبحانه وتعالى «كيف تكفرون بالله» ثم ذكر آية الإحياء (فَأَحْيَاكُمْ) بعد التبكيت والتعنيف؟

لماذا لم يقل مثلًا.. كيف تكفرون بالله وقد أعطاكم من النعم كذا وكذا؟!

الجواب:لأن نعمة الإحياء هي أصل النعم، ولن يحصل للعبد أي نعمة إلا بعد أن يكون حيًّا

فذكر(الإحياء) لتدل على سائر النعم؛ لأنه لولا الإحياء ما كان هناك نِعَم يصل إليها أبدًا

فتأمل عظمة وبلاغة القرآن، كلام رب العالمين.

(فَأَحْيَاكُمْ) الفاء هنا فاء العطف، وأفادت التعقيب والسرعة، فقد كنتم أمواتًا في بطون أمهاتكم فأحياكم سريعًا.

فالجنين في بطن أمه ميت حتى يرسل الله إليه المَلَك ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يومًا فيصبح حيًّا

حديثِ ابنِ مَسعودٍ:« إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكونُ في ذلكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَكونُ في ذلكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فيه الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ..... » صحيح مسلم

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) أما حرف العطف (ثم) يفيد التعقيب مع التراخي، أي هناك مدة زمنية

لأنه لما أحيانا الله تعالى في بطون أمهاتنا نزلنا على الأرض وعشنا فترة طويلة في الغالب لذلك ذكر الله تعالى «ثُمَّ» ثم يميتكم.

(ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) أي سيُحينا ولكن بعد مدة طويلة في القبور، لأنه مهما مكثنا في البرزخ سنُبعَث **(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** أي سنرجع مرة أخرى بعد هذا النشور وبعد الحساب... وهكذا

- الآية فيها دلالة وبرهان واضح وقاطع على وحدانية الواحد الأحد، وأي إنسان يكفر بعد هذه الآيات لا يكون ضالًا فحسب ـ بل كلمة (ضال) قليلة لأنه مستقر في العقول وفي الفطرة أن الله خالق كل شيء

والعجيب أن الذين كفروا بالله سبحانه وتعالى مقرِّين بالأطوار الثلاثة للإنسان، فالكافر مقر أن (الله) هو الذي خلقه في بطن أمه وأعطاه الحياة على الأرض، وهو مَن سيميته وهو الذي سيحيه !!

فكيف تكفر بعد ذلك بأن الله خلقك؟! فهذا كفران مبين، ولا يُعذَر صاحبه أمام الله إذا مات عليه؛ ولذلك مَن مات على الكفر بغير توبة يخلَّد في النار.

" هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) "

إذا تدبرنا وتأملنا سنجد الآية تقول: أن خَلْق الأرض سبَق خَلْق السموات

وأيضًا في قوله سبحانه وتعالى:

الآيات، قال تعالى: "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(11) " [فصلت]

فجميع هذه الآيات السابقة في (البقرة، فصلت) تبيِّن أن خلْق الأرض سبَق خلْق السموات، أي أن الله عز وجل خلق الأرض ثم خلق السماء.

ولكن هناك آية في سورة السجدة في قوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ...(4)"

هنا قدَّم خلْق السموات على خلْق الأرض، فأصبح هنا إشكال لا بد له من حل؛ لأن القرآن ليس به تعارض أبدًا، لكن هي قلة بصيرة وقلة علم وعدم النظر الجيد، لكن إذا ركزنا كما كان يفعل السلف ستجد أنه لا وجود لأي تعارض ولا أي تضاد !!

كيف الجمع بين ذلك؟

★ **للعلماء في ذلك أقوال:**

بينوا أن الله تعالى خلق الأرض قبل السماء؛ ولكن عندما خلقها لم تكن مدحوَّة (بدون دَحّ) والدَحو معناه: إخراج الماء والمرعى وظهور الخيرات على ظهر الأرض " وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (31) "[النازعات] فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا

فقيل: أنه تعالى خلق الأرض أولًا بدون دَحْو، وبعد ذلك خلق السماء، ثم دحا الأرض.

فهكذا يكون الجمع بين الآيات

أن بداية الخلق كانت الأرض ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن سبع سموات، ثم دحا الأرض وأخرج منها الماء والمرعى وأسباب الحياة

★ **ولكن سيكون هناك إشكال آخر**

لأننا بذلك الجمع بين الآيات نكون قد قسَّمنا خلْق الأرض على مرحلتين

وهذا لايستقيم مع لفظ (جميعا) الذي ورد في الآية في قوله تعالى: " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ "

فكلمة(جميعًا) من ألفاظ العموم،والتي لا يستقيم معها قول أن الله خلق الأرض أولًا ثم بعدها السماء ثم دحا الأرض بعد ذلك

● وحل الإشكال كالآتي:

أن الخلق لغة تطلق على التقدير؛ خلق أي: قدَّر

لقوله تعالى " وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ(10)" [فصلت]

فالخلق في سورتي البقرة وفصلت معناه التقدير

ماذا نفعل ؟ عندنا معنى شرعي ومعنى لغوي

قاعدة هامة :-

إذا تعارض المعنى الشرعي مع المعنى اللغوي .. ماذا نقدِّم؟

الجواب: نقدم المعنى الشرعي.

ولكن متى نقدم المعنى اللغوي على الشرعي؟

- أولًا: هنا المعنى يستقيم لغةً وشرعًا لقوله تعالى " وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا "

وقدَّر معناها: خلق

- ثانيًا: أن الأصل يمكن إطلاقه على الفرع بمعنى أنه أصل خلق الأرض فتقدمت الأرض على السماء بمعنى الأصل .

وذلك مثل قوله تعالى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ(11)"[الأعراف]

الملائكة سجدوا لآدم وليس لنا ومع ذلك قال الله تعالى (خلقناكم ثم صورناكم) لأن الأصل يجوز إطلاقه على الفرع

فأصل الخلق هو (آدم) يُطلق على الفرع (كل بني آدم)

إذًا نرد من وجهين:

- إما بالمعنى اللغوي(التقدير) ويوافقه المعنى الشرعي

- وإما بمعنى إنه أصل خلق الأرض، فتقدمت الأرض على السماء بمعنى الأصل.

خلق أصل الأرض أولًا ثم السماء ثم قدَّر الأقوات وقدَّر الأرزاق وقدَّر ما على الأرض بعد خلق السماء.

(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ) ما معنى استوى إلى السماء؟

قال فريق من أهل السنة :

- استوى بمعنى: أقبل وقصد إلى السماء (وهو قول مرجوح)

- وقيل معنى استوى في الآية: علا وارتفع (وهو الراجح)

● رد ابن جرير الطبري على المؤولة:

العجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قوله تعالى:

" ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ " الذي هو بمعنى العلو والارتفاع هربًا عند نفسه بأن يلزمها بزعمه أن التأويل بمعناها المفهوم أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها !!

إلى أن قال:(ثم لم ينجح مما هرب منه فقال زعمت تأويل قوله (استوى) أقبل؟! أفكان مدبرًا عن السماء فأقبل إليها؟! فإن زعم أن ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها عُلُوَّ ملك وسلطان، لا عُلُوَّ انتقال وزوال.

وأصحاب القول (علا واستوى)

ابن عباس، ابن أبي حاتم، الحسن البصري، الربيع بن أنس، أبو العالية، البخاري، ابن عبد البر المالكي نقله في (شرح الموطأ)، الإمام الذهبي في (كتابه العلو)، الإمام الطبري.

أما ابن القيم بعد أن ذكر معنى الاستواء وأنواعه ساق آية البقرة والدخان ثم قال:(وهذا معنى العلو والارتفاع بإجماع السلف) [كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، المجلد الثاني، ص349]

(فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

التسوية معناها: التوطئة، والإصلاح، التقويم

سوّى الأرض بحيث أنها تصلح وتستقيم معها الحياة، وهذا من نعم الله على العباد، الأرض والسماء كانا متماسكين ببعضهما والله فتقهما وفصلهما عن بعضهما بكيفية يعلمها الله سبحانه.

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) "

(إِذْ) ظرفية ، موضع نصب بتقدير: اذكر

(الْأَرْضِ) الغبراء التي نعيش عليها

(خَلِيفَةً) له معانٍ في الآية :

- **إما الخالف :** أي يخلُف من كان قبله من الملائكة،على اعتبار مَن يقول أن الأرض كان يسكنها الملائكة أو الشياطين أو ماشابه (وهذا ليس عليه دليل).

- **وإما المخلوف :** أي يخلفه غيره، الذرية يخلف بعضها بعض (الأرجح)

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)

كيف علمت الملائكة أن بني آدم سيسفكون الدماء ويفسدون في الأرض؟!

للعلماء في هذا قولان :-

القول الأول: أن هناك محذوف في الآية تقديره (أتجعل فيها مَن يفسد فيها بكذا وكذا.....) فالله أعلمهم بما سيكون ولكن حذفت في الآية.

القول الثاني: أن الله أعلمهم بالفعل بما سيكون وأن بني آدم سيسفك الدماء وسيفسدون في الأرض (وهذا من ضمن خصائصهم) والآية ليس بها محذوف.

وفي الحالتين علمت الملائكة من الله؛ فيكون إخبارهم إما صراحةً بالقول والآية فيها محذوف، وإما أنه أخبرهم بما سيكون من علم الغيب.

فسؤال الملائكة إما اعتراض تعجبي، وإما لعلمهم أن الله لا يفعل الشيء إلا لحكمة، فسؤالهم: ما الحكمة يا رب العالمين؟

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)

(نُسَبِّحُ) التسبيح: التنزيه والبعدعن كل عيب ونقص، وإثبات الكمال لله

(نُقَدِّسُ لَكَ) التقديس على معنيين :

- **نطهرك عن كل نقص (معنى التسبيح والتنزيه)**
- **نتطهر لك بالأفعال الحميدة ونجمّل أنفسنا بما يرضيك عنا ونترك الأخلاق الذميمة والأفعال الخبيثة**

(لَكَ) اللام هنا تفيد التخصيص والإخلاص

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

أجاب الله على الملائكة إجابة مجملة بلاتفصيل، ونفى عنهم العلم نفي مجمل، وبيَّن لنفسه العلم بصورة مطلقة، وذلك لبيان عِظَم علم الله سبحانه وتعالى وعجز مَن سواه.

ثم ذكر أشياء كثيرة والحِكَم العظيمة في خلْق آدم لكن في مواضع مختلفة من القرآن وليس في هذه الآية، فما الحِكَم البالغة التي يعلمها الله من خلق آدم؟

1- " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ "

أول رد على الملائكة «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» هذا قول أهل الأرض ويُرد به على الملائكة، فقول الملائكة كقول الذين قالوا " إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...(124) " [الأنعام]

فأجاب عز وجل أن حكمته تأبى أن تكون الرسالة في غير محلها ولا لغير أهلها.

2- التخصيص والتفضيل والتفصيل إذا جاء في آية سنجدها تُعقَّب بالعلم

- **تأمل قوله تعالى في شأن سليمان**

" وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(81) " [الأنبياء]

أعطى له الريح، والريح تجري كما يشاء ، فتسخير الريح لسليمان كان لحكمة بالغة وعلم كامل من الله سبحانه وتعالى، لذلك تذييل الآية (وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ)

- لما اعترض الكفار على المسلمين الذين أسلموا خاصة الفقراء منهم

" أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " ردّ عليهم سبحانه " أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(53) " [الأنعام]

التعقيب(بالعلم) هذا من ود الودود اللطيف لعباده أنه يبيِّن لهم علمه وحكمته من هذا التفضيل والتخصيص رغم أنه ليس في حاجة لذلك سبحانه.

- في قوله تعالى: " جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(97) " [المائدة]

خصص الأزمنة والأمكنة ثم قال:(بكل شيء عليم)

حتى لا يعترض أحد ولو بقلبه.

- قال تعالى: " فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(26) " [الفتح]

كلمة التقوى: كلمة لا إله إلا الله

أحق بها وأهلها: يستحقون التوحيد دون كفار مكة الذين رفضوا إلا الشرك، وذيَّل الآية بعلمه

يعلم من يستحق الهداية ومن يستحق الغواية و كل شيء عنده بسابق علمه وضع الأشياء.

وقفة

يطمئن القلب ويرضى عندما يعلم أن كل شيء بقدر لأنه تقدير العليم الحكيم، فالله يعلم وأنتم لاتعلمون.

(إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

فالله أعلم أنه كما سيكون من نسل خليفة آدم على الأرض الذين سيسفكون الدماء سيكون أيضًا أولياء وأحباء ورسل وأنبياء ومَن يتقرب إليه سبحانه بأنواع القربات من ذل وخشوع وحب ورضا وخضوع لله رغم وجود الشهوة به إلا إنه يتركها لله، فيعبد الله عبودية الاختيار التي يحبها الله سبحانه وتعالى.